شَجَرَةُ العَطَاءِ وَالسَّكَنِ

بقلم: سلمى



سلسلة أمي البطلة

شَجَرَةُ العَطَاءِ وَالسَّكَنِ

بقلم: سلمى



مكتبة الطفل
لجيل الخلافة

كَانَتْ سَلْمَى تَعُودُ مِنَ المَدْرَسَةِ كُلَّ يَوْمٍ، فَتَسْتَقْبِلُهَا رَائِحَةُ الغَدَاءِ الَّتِي تَمْلأُ أَرْجَاءَ البَيْتِ، وَصَوْتُ ضَحِكَاتِ أُمِّهَا وَهِيَ تُرَتِّبُ سُفْرَةَ الطَّعَامِ. وَكَانَ وَالِدُهَا يَجْلِسُ بِجَانِبِهَا بَعْدَ يَوْمٍ طَوِيلٍ، يُحَدِّثُهَا وَتُحَدِّثُهُ، وَكَأَنَّهُمَا يَصْنَعَانِ جَوًّا دَافِئًا يَنْتَشِرُ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنَ البَيْتِ.



لَكِنْ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، عَادَتْ سَلْمَى مُبَكِّرًا عَلَى غَيْرِ العَادَةِ. دَفَعَتِ البَابَ بِمَرَحٍ... ثُمَّ تَوَقَّفَتْ فَجْأَةً.

لَقَدْ رَأَتْ أُمَّهَا جَالِسَةً عَلَى الأَرْضِ، تُضَمِّدُ يَدَهَا الَّتِي يَنْزِفُ مِنْهَا الدَّمُ، وَمَلَامِحُ الأَلَمِ تَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِهَا الحَنُونِ.

اتَّسَعَتْ عَيْنَا سَلْمَى، وَاقْتَرَبَتْ بِخَوْفٍ:

"أُمِّي!! مَاذَا حَدَثَ لَكِ؟!"

ابْتَسَمَتِ الأُمُّ رَغْمَ الأَلَمِ، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ مُطْمَئِنٍ:

"لَا شَيْءَ يَا سَلْمَى... مُجَرَّدُ جُرْحٍ صَغِيرٍ، سَيُشْفَى قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللهُ."

رَكَضَتْ سَلْمَى نَحْوَهَا:
"هَلْ يُؤْلِمُك كَثِيرًا؟ كَيْفَ حَصَلَ هَذَا؟"
احْتَضَنَت الأُمُّ صَغِيرَتَهَا وَقَالَتْ:
"أَحْيَانًا تَحْدُثُ حَوَادِثُ فِي المَطْبَخِ يَا ابْنَتِي،
وَهَذِهِ مِنْ مُكَفِّرَات الذُّنُوب."
لَمْ تَفْهَمْ سَلْمَى، فَسَأَلَتْ بِاهْتِمَام:
"كَيْفَ يَكُونُ الجُرْحُ مُكَفِّرًا لِلذُّنُوبِ؟"
فَقَالَت الأُمُّ بِرِفْق:
"قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ تَعَب أَوْ مَرَض
أَوْ هَمٍّ أَوْ أَذًى حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ."





شَعَرَتْ سَلْمَى بِبَعْضِ الِاطْمِئْنَانِ... لَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ رَأَتْ أُمَّهَا تَقُومُ مُهَرْوِلَةً.

"يَجِبُ أَنْ نُسْرِعَ يَا سَلْمَى، تَعَالِي سَاعِدِينِي كَيْ نُعِدَّ السُّفْرَةَ قَبْلَ وُصُولِ وَالِدِكِ، سَيَكُونُ مُتْعَبًا وَجَائِعًا، وَلَيْسَ مِنَ الجَمِيلِ أَنْ نَتَأَخَّرَ عَنْهُ."

وَمَا إِنْ أَكْمَلَتْ خَدِيجَةُ كَلِمَاتِهَا، حَتَّى سَمِعَتْ صَوْتَ البَابِ يُفْتَحُ...

إِنَّهُ يَحْيَى قَدْ عَادَ!

رَكَضَتْ سَلْمَى نَحْوَ وَالِدِهَا كَالعَادَةِ:
"السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَبِي! مَاذَا أَحْضَرْتَ اليَوْمَ؟"
ابْتَسَمَ أَبُوهَا وَهُوَ يَمُدُّ لَهَا الكِيسَ:
"أَحْضَرْتُ لَكِ المَوْزَ الَّذِي تُحِبِّينَ."
قَفَزَ قَلْبُ سَلْمَى فَرَحًا:
"رَائِعٌ! سَأُعِدُّ كَيْكَةَ المَوْزِ لِلْعَشَاءِ اليَوْمَ!"
لَكِنَّ وَالِدَهَا الَّذِي ابْتَسَمَ لِقَائِهَا، سَرْعَانَ مَا شَدَّ انْتِبَاهَهُ
مَشْهَدُ زَوْجَتِهِ وَهِيَ تَلُفُّ ضِمَادَةً عَلَى يدهَا.

أَسْرَعَ إِلَيْهَا، وَأَمْسَكَ يَدَهَا بِرِفْقٍ:
"لَا بَأْسَ عَلَيْكِ يَا خَدِيجَةُ... طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ. كَيْفَ تَشْعُرِينَ؟ هَلْ هُوَ مُؤْلِمٌ؟"
قَالَتْ خَدِيجَةُ:
"الحَمْدُ للهِ أَنَا بِخَيْرٍ. كَانَ الخَطَأُ خَطَئِي لِأَنِّي اسْتَخْدَمْتُ السِّكِّينَ الحَادَّ الجَدِيدَ وَلَمْ أَكُنْ يَقِظَةً عِنْدَ تَقْطِيعِ اللَّحْمِ."
فَقَالَ يَحْيَى بِحَزْمٍ لَطِيفٍ:
"كَانَ عَلَيْكِ أَنْ تَنْتَظِرِينِي لِأُسَاعِدَكِ. سَأُقَطِّعُ لَكِ اللَّحْمَ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ لِلْعَمَلِ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ تُصَابَ يَدُكِ مَرَّةً أُخْرَى."
فَقَالَتْ شَاكِرَةً:
"رَضِيَ اللهُ عَنْكَ يَا يَحْيَى. أَنْتَ تَتَحَمَّلُ أَعْبَاءً كَثِيرَةً، فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ البَيْتِ... سَأَكُونُ أَكْثَرَ يَقَظَةً."
فَقَاطَعَهَا مُبْتَسِمًا:
"هَذَا أَمْرٌ، وَلَيْسَ طَلَبًا يَا خَدِيجَةُ. لَنْ أَسْمَحَ لَكِ بِاسْتِخْدَامِ السِّكِّينِ الحَادِّ مَرَّةً أُخْرَى. هَذِهِ مُهِمَّتِي."
فَرَدَّتْ وَهِيَ تَضْحَكُ:
"أَمْرُكَ يَا يَحْيَى... أَنْتَ القَائِدُ وَأَنْتَ الأَمِيرُ، وَلَنْ يَكُونَ إِلَّا كَمَا تُحِبُّ."
وَضَحِكَ الجَمِيعُ، وَكَانَ لِلْمَشْهَدِ وَقْعٌ جَمِيلٌ فِي قَلْبِ سَلْمَى، وَكَذَلِكَ لُبْنَى الصَّغِيرَةُ الَّتِي كَانَتْ تُرَاقِبُ المَشْهَدَ مِنْ بَابِ المَطْبَخِ بِابْتِسَامَةٍ خَجُولَةٍ.

جَلَسَ الجَمِيعُ عَلَى الطَّاوِلَةِ. وَبَيْنَمَا كَانَتْ سَلْمَى تَقُصُّ لِعُمَرَ مَا جَرَى، كَانَ يَحْيَى يُوَزِّعُ الطَّعَامَ بِنَفْسِهِ رِفْقًا بِيَدِ زَوْجَتِهِ. وَكَانَ يُضْحِكُ أَبْنَاءَهُ بِقِصَصِهِ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَرْوِي قِصَّةَ "الجُنْدِيِّ المُصَاب":

"أَنْتِ تَعْمَلِينَ طَوَالَ اليَوْمِ بَيْنَ المَطْبَخِ وَرِعَايَةِ الأَطْفَالِ وَتَعْلِيمِهِمْ... لَابُدَّ لَكِ مِنْ وَقْتٍ لِلرَّاحَةِ."

ضَحِكَتْ خَدِيجَةُ:

"وَأَنْتَ تَعْمَلُ مُنْذُ الصَّبَاحِ حَتَّى المَسَاءِ... الرَّاحَةُ أَوْلَى بِكَ."

سَأَلَتْ سَلْمَى بِبَرَاءَة:

"وَمَنْ مِنْكُمَا يَتْعَبُ أَكْثَرَ؟"

نَظَرَ الأَبُ إِلَى الأُمِّ، وَنَظَرَتِ الأُمُّ إِلَيْهِ... وَابْتَسَمَ الِاثْنَانِ ابْتِسَامَةً وَاحِدَةً.

قَالَ الأَبُ:

"يَا سَلْمَى... التَّعَبُ لَيْسَ مُبَارَاةً.

أَنَا أَتْعَبُ خَارِجَ البَيْتِ لِأَحْمِيَكُمَا،

وَمَامَا تَتْعَبُ دَاخِلَ البَيْتِ لِتَسْكُنَ قُلُوبُنَا."

وَأَضَافَتِ الأُمُّ:

"وَالبَيْتُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِجُهْدَيْنَا مَعًا... مِثْلَ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا الطَّائِرُ."

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ... فَهِمَتْ سَلْمَى مَعْنَى التَّكَامُلِ.



فِي المَسَاءِ، هَبَّتْ رِيَاحٌ قَوِيَّةٌ وَانْطَفَأَت الكَهْرُبَاءُ فَجْأَةً.
ارْتَجَفَتْ سَلْمَى قَلِيلًا، فَجَلَسَت الأُمُّ قُرْبَهَا تُطَمْئِنُهَا،
بَيْنَمَا أَشْعَلَ الأَبُ شَمْعَةً، ثُمَّ خَرَجَ لِيَفْحَصَ شَبَكَةَ الكَهْرُبَاءِ، وَتَبِعَهُ عُمَرُ بِخُطُوَاتٍ حذرَةٍ.
أَصْلَحَ الأَبُ العُطْلَ، فَعَادَ النُّورُ يَمْلأُ البَيْت.
عَادَ يَحْيَى وَعُمَرُ لِيَجِدَا سَلْمَى وَلُبْنَى تَتَشَبَّثَانِ بِأُمِّهِمَا. فَضَحِكَ وَقَالَ:
"لَقَدْ عَادَ النُّورُ! لِمَاذَا تَتَشَبَّثَانِ بِأُمِّكُمَا؟"
قَالَتْ سَلْمَى:
"خَشِيتُ أَنْ تَنْقَطِعَ الكَهْرُبَاءُ مَرَّةً أُخْرَى!"
فَضَحِكَ عُمَرُ: "وأبي مَوْجُودٌ مَعَنَا! كَيْفَ تَخَافِينَ؟"
قَالَتْ سَلْمَى: "أَنَا أَخَافُ مِنَ الظَّلَامِ..."
فَقَالَت الأُمُّ بِلُطْف:
"أَبُوكُمْ يَا أَحِبَّائِي مِثْلُ النُّورِ فِي هَذَا البَيْتِ، بِدُونِهِ لَا نَشْعُرُ بِالأَمَانِ."
فَنَظَرَ إِلَيْهَا يَحْيَى نَظْرَةَ مَوَدَّةٍ وَقَالَ:
"بَلْ أَنْت النُّورُ يَا خَدِيجَةُ... وَلَوْلَاكِ مَا كَانَ البَيْتُ دَافِئًا."
اقْتَرَبَتْ سَلْمَى مِنْهُمَا وَقَالَتْ بِصَوْتٍ خَافِت:
"أَنْتُمْ مِثْلُ شَجَرَةٍ... جُذُورُهَا وَسَاقُهَا وَأَغْصَانُهَا... تَكْبَرُ مَعًا."
وَشَعَرَتْ لِلْمَرَّةِ الأُولَى أَنَّهَا أَصْبَحَتْ أَدِيبَة
وَفَهِمَتْ أَنَّ البَيْتَ لَيْسَ جُدْرَانًا... بَلْ قُلُوبٌ تَتَكَامَلُ، لَا تَتَنَافَسُ.



حَفِظَتْ سَلْمَى المَعَانِيَ الجَمِيلَةَ وَسَارَعَتْ لِتَكْتُبَ فِي دَفْتَرِهَا بِكُلِّ فَخْرٍ:
"أُمِّي تَعْمَلُ هُنَا... فِي قَلْبِ البَيْت.
هِيَ مِثْلُ شَجَرَةٍ تُعْطِي ظِلًّا وَطُمَأْنِينَةً.
وَأَبِي هُوَ الأَرْضُ الَّتِي تُثَبِّتُهَا وَتُؤَمِّنُ لَهَا أَسْبَابَ البَقَاءِ مُبْهِجَةً.
هُمَا يَعْمَلَانِ مَعًا... كُلٌّ يُكْمِلُ الآخَرَ.
وَأَنَا... ثَمَرَةُ حُبِّهِمَا وَتَعَبِهِمَا."



ثُمَّ أَضَافَتْ:

"أَجْمَلُ البُيُوتِ لَيْسَتِ الَّتِي يَتَسَاوَى فِيهَا الجَمِيعِ، بلِ الَّتِي يَتَكَامَلُ فِيهَا الجَمِيعُ".





مكتبة الطفل لجيل

زوروا موقعنا الإلكتروني:

ketaeb

قناتنا على التلغرام:

قناة جيل